لكل أجل كتاب

لا أستطيع أن أدّعي العلم بتفسير هذه الآية الكريمة علماً لا ينازعني فيه الكثيرون من أهل الفضل . ولا أستطيع أن أجاري الذين يأخذون هذه الآية على ظاهرها ، فيقولون بأن معناها منصب على الاعمار والآجال باعتبار ما تلاها من الآيات ، ثم يختمون اجتهادهم بالوقوف عند هذا المعنى وحده . بل أذهب الى أن هذه الآية أكثر من معنى ، فكما أنها تنصب على الاعمار والآجال ، كذلك هي تشير إشارة خاصة الى معنى من معاني التطور الاجتماعي ، وتلمح الى أن النظامات المدنية انما تتغير بتغير الزمان ، وتتفاوت بتفاوت العلم والعقلية ، وتتفاضل بتفاضي الناحية التي ينظر منها الناس الى حقائق الحياة وحقائق الوجود ، وانه بمقتضى ذلك تتغير النظامات وتتبدّل الأوضاع الاجتماعية والفكرية ، وأنه بمقتضى ذلك تتكيف النظم وتتعدل الشرائع من حيث حاجات البشر الى التطور ، ومن حيث أن البشر عجينة ليّنة في يد المقدرات الطبيعية والغيبية ، فيكون لكل زمان من الأزمنة ، ولكل عصر من العصور ، لوناً من الشرائع وضرباً من النظام يختلف عن اللون الذي يلابس الشرائع والنظم في غيره من الأعصر ، وبذلك تماشي الشرائع حاجات الناس ويعاشي الناس روح الشرائع ، حتى لا يقف دولاب الرقي الانساني عن دورته الطبيعية المقدورة ، ولا تتخلف الشرائع عن مسايرة الحاجات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية ، فيكون لكل زمان لباس خاص من الشرائع ، وصورة بعينها من النظام ، ولون بذاته من الفكر ، ويكون إذن « لكل أجل كتاب » .

أجملت هذه الآية معنى التطور الانساني برمته في ثلاث كلمات . فان تاريخ الانسان يدل دلالة قاطعة ان له عصراً عمت فيها الجهالات وأسفت فيه الأخلاق وأعمت فيه كل المعاني القدسية التي تنزل الآن من مدنيتنا ، ومن كل المدنيات الرشيدة : المنزلة الأولى في تقدير العقل والمشاعر . كان الانسان في ذلك العصر حيوانا يأكل إذا جاع ويجوع إذا لم يجد ، ويفترس

إذا اشتدت به نداءات الاحتفاظ بالذات، ويموت مأكولاً إذا ما عجز عن الدفاع عن نفسه، ويتخذ من الأشجار بيوتاً ومن المغاور والكهوف سكناً. فضيلته أن يسد حاجات الطبع المادي، فسمت رذائله وتخاذلت فضائله، وكانت هذه الشريعة في الواقع شريعة ذلك الزمن وقانون ذلك العصر: قانون القوة والفوضى، قانونه كن آكلاً قبل أن تكون مأكولاً».

عاش الانسان في ذلك العصر فرداً همه من الحياة أن يرد عنها طارية الموت والفناء، وان يسد حاجات الجسد وحدها، فعاش عيش البهائم السائمة، وكان قانونه في ذلك الحين، قانون كل سائمة من الحيوان.

تكونت بعد ذلك الأسرة، ومن الأسر تكونت القبيلة، ومن القبائل تكونت الأمم والشعوب. وفي هذا السطر وحده طوينا من عمر الدنيا الآلاف المؤلفة من السنين، وقطعنا عشرات المئات من القرون بلغت الانسان من بعد ذلك حجر الأديان الأولى يدرج نحو الروح بعد أن قضت عوامل التطور على الزمن وعلى النظام الذي درج فيه الانسان في حجر المادة. وإذن فقد دلتنا حقائق هذه الحياة البشرية دلالة صادقة على أن الانسان لم يجمد في عصر من عصوره ولا استحجر مستعصياً على سنن التطور الأبدية أن يتبدل من سائمة إنساناً، وأن يخرج من صلب المادية بشراً سوياً. سوي النظام، سوي الخلق، سوي الروح، كأنما هداه طبعه أن يكون من التطور والى التطور، وان الحياة تطور صرف نشهده في تقلب المخلوق الآدمي منذ أن يكون نطفة فعلقة فمضغة فعظاماً تكسى لحماً. ثم طفلاً ثم يافعاً ثم شيخاً، ثم فيلسوفاً من طراز سقراط أو نبياً يهدي الناس الصراط المستقيم. ومثل الفرد في تدرجه من النطفة الى النبي، كمثل الجمعية البشرية في تدرجها من إنسان كأنه سائمة الى انسان الحضارة الجديدة، إذ تحتاج في كل طور تجتازه الى شريعة والى كتاب، فشريعة المضغة ليس هي شريعة الطفل، وشريعة الطفل ليست هي شريعة اليافع، وشريعة الفتى غير شريعة الكهل، وشريعة الأبله ليس هي بذاتها شريعة الفيلسوف، ولا شريعة الفيلسوف هي بذاتها شريعة النبي. وإذن يكون لكل حال شريعة، وإذن يكون لكل أجل كتاب.

ماذا نقصد بتفسير هذه الآية هذا التفسير، وما هو الحق الثابت الذي يدور من حوله

المعنى المدرك من أن لكل زمان شريعة ؟ نقصد أن جوهر الحق ثابت ، وكذلك يكون لكل شريعة جوهر ثابت . لأن معنى الشريعة أن يكون في الضمير الانساني نزعة الى معرفة الحق ونبع يفيض دائماً بمعنى الحق . وأول حق للإنسان في هذه الدنيا هو حق الحياة . ولكن على أي وجه من وجوه الحياة تتكيف الصورة التي تلابس هذا الحق ؟ الواقع أن هذه الصورة تختلف باختلاف الأزمان والأحوال ومراتب الرقي أو الاسفاف التي تكون عليها جماعة من الجماعات . فالحق باعتباره مفهوماً ينطوي عليه خير الانسان ، كذلك الشريعة فما مفهوم كلي ثابت . ولكن الصورة التي تتكيف بها هي التي تجري عليها سنن التطور ، وهي التي تجري عليها ملابسات الحاجات الناشئة بتغير الظروف والأوضاع وانذن يكون لكل زمان شريعة . وإذن يكون لكل أجل كتاب .

* * *

في هذا كثير من الحق . فان الزمن الذي كنا نعدّ فيه لأعدائنا من رباط الخيل ، زمن قد مضى أجله ومضت ملابساته . وجاء الزمن الذي نعدّ لهم فيه المدفع والبارجة والدبابة والقنبلة الذرية . الشريعة الثابتة وجوهر الطبع الذي لا يتغيّر هو أن يعدّ الانسان لنفسه آلة الدفاع من عدوّه . ولكن اذا دارت عجلة الزمان وأصبح رباط الخيل عدة الهزيمة في التناحر على البقاء ، وجب ، وان كل جوهر شريعة الدفاع عن نفسه واحداً لا يتغير ، أن تتغير وسائله بمقتضى التطور الذي أصاب العلم والفكر ، وبمقتضى الصورة التي استطاع الانسان بعقله أن يجعلها تلابس المادة التي هي أداته في هذه الحياة . كنا نتخذ فيما مضى السيوف والحراب والسهام آلة للدفاع عن النفس مطاوعة لوحيات شريعة البقاء التي هي ثابتة . ولكن هذه الصورة التي لابست عدّة هذه الشريعة قد تكيفت الآن ، فهل نكون سيّافين إلى الحياة وإلى إدراك الحقائق وإلى الفهم الصحيح ، إذا ربطنا بين الشريعة وأداتها ، وقلنا إن الصورة التي صلحت عدة لشريعة ما قد تصلح لجميع الأزمان ولجميع الظروف وعند جميع الناس وفي مختلف بقاع الأرض ؟ اذا أثبتنا على ذلك فإنما نكون متخلفين عن زماننا ، جانحين إلى الجمود الذي لا مسايرة فيه لمقتضيات الحياة المادية والعقلية .

مثلك في ذلك مثل انسان نشأ في خط الاستواء ثم أراد أن يزور قطب الشمال ، فذهب

اليه في أعماره التي لا تستر من جسمه شيئاً ، نازعاً الى الاعتقاد بأن شريعة الاستواء هي شريعة القطب وأن الحياة هنا هي الحياة هناك، وان ما ورث عن الآباء صالح لكل بيئة ولكل زمان ! وما جئنا بذلك إلاّ لنقول إن بين شرائع النواميس المادية وشرائع النواميس العقلية والروحية ، شبهاً وأي شبه . فان صورة ما من صور الفكر أو الخلق أو الوضع الاجتماعي قد تصبح في زمن وفي بيئة وفي جماعة من الناس ، وبينها وبين الحاجات الضرورية للحياة بوناً شاسعاً وصدعاً متنائياً ، كذلك الصدع الذي يفرق في الطبيعة بين خط الاستواء ومعضائه ، وقطب الشمال بزمهريره الذي يدري الوجوه .

نضرب لذلك أمثالاً من شريعتنا الاسلامية . فالبرّ بالفقير والمسكين وابن السبيل من الأشياء التي تدخل في شريعة الاسلام مدخل الأمر القاطع . ولذلك شرعت الديانة الاسلامية مبدأ الزكاة ، وجعلت له حدوداً محدّدة بما قام في زمان من حاجات الفقير وقدرة المزكي . ولكن حاجات الفقير تضاعفت وزادت ، وقدرة من تجب عليهم الزكاة تضاعفت أضعافاً . وأصبح ما كان يجري مجرى المثل الخيالي من القول بأن هنالك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، حقيقة واقعة في هذا الزمن . وكان الفقراء والمساكين كما كانوا في جميع العصور وفي العصر الحاضر كثرة بالغة الى جانب قلة يأكلون الأموال بالباطل . فهل نستطيع أن نقول ان مبدأ التزكية عن المال وعن النفس وإن ظل قائماً بجوهره ، يجب أن يتعلق جوهره بأعراضه التي أصبحت في هذا الزمن كأنها الحياة الى جانب حاجات هذا المجتمع ، والى جانب الثروات التي استجمعت في أيدٍ زادها الغنى نهمة الى المال وزادتها القوة والسلطان جشعاً في سبيل الدنيا ؟

نرجع بعد ذلك الى الجهاد في سبيل الله أو في سبيل الذات . كانت عدة الجهاد فيما مضى سيف ودابة لمن استطاع أن يكون له دابة . فما عدتنا اليوم ؟ عدتنا الفيالق المجهزة بأدق الآلات الثمينة والبوارج التي تمخر البحر كالأعلام والطائرات التي تكفي نفقات واحدة منهن لتجهيز جيش برمته في الأزمان السالفة . فهل يكفينا اليوم لتجهيز جندي محارب ما كان يكفي جندياً في جيش ابن الوليد أو أسامة بن زيد . وهل يكفينا من الخراج ما كان يكفي حكومة اسلامية في الصدر الأول من الاسلام ، وهل نستطيع أن نقول أننا أعددنا عدة

الجهاد ونسبة ما نجبي اليوم من أصحاب الملايين هي نسبة ما كان يجبيه عمر بن الخطاب ، إلا ونكون الى الله أدنى ، والى انكار واقع الأمس من الحياة أقرب شيء ؟ أما والأمر على ما رأيت ، فإن لكل زمان شريعة ولكل أجل كتاب .

* * *

في هذا كثير من الحق . وإذن نخلص منه الى سؤال : ما هي الغلالة التي تأتزر بها شريعتنا التي نعتقد أن جوهرها هو الحق الذي ثبت في قلوبنا باعتبارنا بشراً ، ولتسر به عقولنا وأفكارنا باعتبار أننا أهل عقيدة مزاجها ثابت ثبوت الرواسي ، وإيمان روحه من الحق والى الحق . الغلالة أو الصورة التي ينبغي أن تلابس شريعتنا السمحة يقتضي تطورنا الذي قطعنا فيه شوطاً مداه خمسة عشر قرناً من عمر هذه الدنيا ، إنما تستمد من نسيج يلائم المحيط الذي اكتنفنا في العصر الذي نعيش فيه . محيط شعرنا فيه بأن الظلم واقع ونحن لا ندفعه ، وأن الفقر كائن ونحن لا نقتله ، وأن المرض فتاك ونحن لا نقاومه ، وأن الجهل فاش ونحن لا نعالجه ، وأن الأخلاق دنية ونحن لا نقومها ، وأن المطامع فاضحة ونحن لا نكبتها ، وأن الضلالة قائمة ، والحقيقة نائمة ، وأن العدل ضائع ، والظلم ذائع ، وأن الصراحة تقتل ، وأن سبيل المجد كيد وختل . إن عدتنا في ذلك أن نقول ، ونقول بحق « لكل أجل كتاب » .

لقد مضى ولله الحمد من ذلك الزمن الذي كان أسلافنا في عصور انحدارهم يرون فيه الظلم لزاماً ، والفقر لجاماً ، وأن المرض بلية ، والجهل عطية ، وأن دنايا الخلق سبيل الرغد ، وأن الطمع طريق الجاه ، وأن الضلالة إذا لم تصبك حسبك أنها عنك بمنأى وأنت منها بمنجى ، وأن العدل اذا ضاع فما عليك ضياعه إذا لم تفجع في مال ولا ولد ، وما عليك أن تسكت عن الحق فلا تصارح به ولو أصبحت في دين الله شيطاناً أخرس ، وفي ذمة الرجولة خنثى ، فلا أنت بذكر ولا أنت بأنثى .

الغلالة التي تواءم روح عصرنا ومحيطنا ، وتتفق ومدرج الحياة الذي درجنا فيه هي الغلالة التي تردنا مسلمين أحراراً في أفكارنا وقلوبنا ، وأن نتخذ من الإيمان الثابت قوة ندفع بها الظلم ونحطمه ، ونقتل بها الفقر وندفنه ، ونقضي على الجهل ، ونروي بقوانا

كلها على المرض : مرض الأجسام ومرض النفوس ومرض العقول ، وأن فضائح أنفسنا وفضائح الناس بالواقع ، ونعمل على أن لا نكون شياطين خرساً نعرف الحق ونسكت عن الحق . وفينا اليوم من القوة ومن البأس ومن الرجولة والفتوة والايمان ، ما لو أردنا أن نزحزح به الجبال لزحزحناها أو نخرق به الأرض لخرقناها ، ونقذنا من أقطارها الى الحق والى العدل والى الغنى والجاه ، ليكون من نصيب الناس أجمعين ، لا من نصيب من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، وانضمت نفوسهم فأصبحت كضآلة الشيء ضررها واقع ونفعها بعيد ، أولئك الذين هم يعلمون أن جاههم سبيله العدوان وعالمهم طريقه الظلم الصارخ ، وان دعتهم مسلوبة من دعاء غيرهم ، من غير أن يؤدوا حتى أمانة القول بأن هنالك ظلماً يجب أن يدفع وأن هنالك ملايين من البشر خوت بطونهم وتعرت أجسامهم وفرغت عقولهم وفسدت نفوسهم وارتجت أرواحهم في صدورهم .

***

لـكل أجل كتاب ، ولـكل زمان شريعة . ذلك ما يمليه طبع الحياة وطبع الأشياء ، وذلك ما يثبته تاريخ الانسانية الطويل في كل مراتب التحول التي مضى فيها الانسان خلال جميع الأزمان . فما هو إذن طبيعة الطور الانتقالي الذي نقف على عتبته ونكاد ندلف من بابه عزلاً من كل سلاح اللهم الا ايماننا بأننا مقدمين على عصر ستكثر فيه الأحداث وتتوالى فيه التغيرات ، وسوف تكتنفنا فيه كثير من قوات الشر وتتساورنا فيه أبالسة من أهل الجرد ، فئة منهم من أهلنا ، وفئة من عدونا ؟

نخطىء كثيراً إذا نحن مضينا نعتقد أن الأساليب التي جرينا عليها في تاريخنا القريب تصلح هي بذاتها لزماننا هذا ، ويتضاعف خطؤنا وتزداد الخاطر التي تحف بجمعيتنا إذا نحن أدركنا الخطأ ولم نعترف به ولم نعمل على حربه الحرب العوان ، لأن الخطر الأكبر ليس في أنك ترى الخطر ، ولـكن في أنك لا تدرك مقدار الخطر الذي يلم بك ، وليس الضعف في أن تكون ضعيفاً وحسب ، بل الضعف الأكبر هو شعورك بالضعف ، كما أن القوة هي في الواقع شعورك بأنك قوي .

وكذلك نخطىء إذا لم نقدر التقدير الكافي ألوان المخاطر التي تمتد في جميع مرافق حياتنا داخلية وخارجية ، ونخطىء إذا نحن اعتقدنا أن الحياة سبيل واحدة ووتيرة واحدة ، وأن

أحداثها لن تنال منا في المستقبل أضعاف أضعاف ما نالت منا في الماضي . فالواجب أن تفتح أعيننا على حقائق الحياة وان نعلم ، أول ما نعلم ، أن ما بنينا من مجد في جهادنا القريب قد يمحى ويزول بقليل من الضعف يتغلغل في قلوبنا وقليل من التدابر يدب في صفوفنا ، وقليل من المطامع تأكل صدورنا ، وقليل من التهاون يطيح بحريتنا واستقلالنا وبجميع ما رأينا من الصدوع التي خلفناها من ورائنا . فالأعين من حولنا مفتحة والأيدي الطامعة عند البناجهزة بكل عدة وسلاح ، والخطر ماثل أمامنا مثوله لعيني النابغة إذ يقول :

فانك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة ... تمد بها أيد إليك نوازع

فان تطاحن المبادىء الاجتماعية التي تمليها مطامع ليس لنا فيها ناقة ولا جمل ، ولا نحن منها في العير ولا في النفير ، تهب على هذه الدنيا لفحاتها المستمرة ، وشرورها المستطيرة ، لفحات الحرب وشرور التخريب والتدمير ، فكيف بنا اذا هبت رياحها ونحن عزل من سلاح المادة وسلاح الفكر ، وكيف بنا اذا اجتاحت من حولنا الأعاصير ونحن نجهل من أين مهابها وما هي مراميها وما هي بواعثها ، وكيف بنا اذا نحن فهمنا منها كثيراً من أوجه الخطأ وغاب عنا كثير من أوجه الصواب ، وكيف بنا اذا هي تسعرت ونحن على ما كنا استكانة وفساداً وفقراً وجهلاً ومرضاً وخسة في الأخلاق وانحلالاً في الأرواح وتطوحاً مع المطامع الفردية والاصفاقات النفسية ، وشعورنا دائماً بأن الجمعية لا كفالة عندها للفرد ، وأن الفرد لا كفالة عنده للجمعية .

ذلك كله يجعلنا نفكر ونفكر طويلاً في اللون الملائم الذي يتطلبه زماننا وظروفه القاسية ، لنلبس شريعتنا الجديدة إياه ، شريعة القوة والقدرة ، وما هي وسائلنا الى القوة وما هي وسائلنا الى القدرة ، وما هو الكتاب الذي ينبغي أن نجعله نبراسنا في هذا العصر الشامخ الذي يتطلع أهله كل يوم الى جديد من العلم والى جديد من الخلق والى جديد من الأساليب ؟

ان وسيلة الحياة في هذا العصر أن نكون رجالاً تؤمن بالحق ، وأرواحاً ترضى بالتضحية ، وسواعد تعمل عند الحاجة كما عملت سواعد أسلافنا عند ما حطموا المظالم وأقروا الحقوق فأنشروا الحياة وهدموا التعمير .

ا . م